الفصل الثاني

الدرس الكبير

(قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال

أجعلتني لله ندًا. قل ما شاء الله وحده).

حديث شريف

إذا قيست عظمة الدعوة بأصالتها وطريقتها في بلوغ المقاصد التي تتغياها فعظمة الدعوة الدينية تضعف أو تتضاعف قدر ما في طريقتها من ورع في التنفيذ وإخلاص الاتجاه إلى الله.

والإمام نبت تنتجه حاجات بلاده. وتتجلى إمامته في مقدار ما يمثل روح امته على طول أعصرها كما يجب أن يكون عليه. لا كما هي عليه، وفي مبلغ توفيقه في أن يجعل سيرته درسًا من دروس دعوته.

وعظماء الأمم في هذا أدنى درجة من الأئمة.

وحياة الإمام في ذاتها إمام.

وروح الأمة الإسلامية الذي تحيا به هو تمسكها بالأمر الأول. وبقدر بعدها منه تقاس هزائمها ونكساتها.

وما هو إلا منهج السلف الصالح أعلنه الأئمة للناس ونفذوه.

وحيث يقوم منهج السلف الصالح لا يكون للبدع مقام. فالناس عندئذ يؤمنون بالله وحده لا شريك له. فتستقيم حياتهم وشخصياتهم، وتصح عباداتهم وتصلح معاملاتهم. ويستعملون العقل فيجتهدون ولا يقلدون. ويجاهدون العدو الخارجي، فلا يقبلون الضيم ولا يستسلمون. ويقهرون العدو الداخلي من عيوب أنفسهم أو مجتمعهم.

ولما تتابع المصلحون على نهج ابن عبد الوهاب وتعاليمه كان ذلك نطقًا من الزمان، مع التطور العلمي والحضاري والتكنولوجي، بأن الإمام الذي خلد كذر نجد وأعاد المجد لجزيرة العرب منذ القرن الثاني عشر كان يمثل روح أمته.

فالعربي أو العربي الأصل فارس التوحيد الأمثل. كأنما نتجه الله ونتج الكون العظيم صنوين أو توءمين. فالتسبيح ينصب انصبابًا في كيان العربي فطرته، إذا يتحرك بين عناصر الطبيعة الكبيرة كالصحراء ومدنها وكالجبل والبحر، أو الصغيرة كحبة الرمل أو قطرة الندى. يأسره الإحساس بوجود خالقه معه في كل خطوة يخطوها وخطرة تخطر له. فيرعى همسات السماء سمعه، وكأنها في حوار معه: بالجلجلة أو الصرير أو القيظ أو الزمهرير، حيث يقيم أو يرتحل، من حيث تضن الدنيا بالماء والأمن إلى حيث تسخو.

والدنيا كلها فلاة واسعة الجنبات تحت أظلاف خيله أو أخفاف عيره. فالضيقة والقلة والمعاناة قوة له، ومعونة على الرحلة. وفيها مفخرة لا مثلبة. والرسول عليه الصلاة والسلام يهديه في مفازة الحياة بقوله (إن بين أيدينا عقبة كئودًا لا يجوزها إلا المخف).

ومن الحركة الواحدة والتواصل بين السماء والصحراء كان الذكاء والسخاء والشجاعة وبعد الهمة. ووجازة العبارة وامتداد الخيال والصدور عن الفطرة. فما أحراه بأن يكون جندي السماء.

والعربي منطبق بفطرته وزكانته. يعتبر ببرهان ربه إذ ينظر إلى إبله كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض التي سطحها الخالق؛ لتعلن له في كل دقة قلب او طرفة عين أو نبضة عرق أن كل لك بقدر. يسيطر عليه الانسجام التام والتكامل الوثيق والتوافق الدقيق والتوازن الذي لا يتخلف. فتنطقه بأن خالق هذا الكون كله واحد، وأن هذا الانسجام والتكامل والتوافق والتوازن تسبيح من الأشياء للخالق، وأن الناس جميعًا يستوون تحت سلطانه، فلا أحد أقوى من صاحب الصحراء في إيمانه وفي يقينه بنصر الله له.

وفي الابدية طلاقة وفي العروبة وضوح. والإعراب – من أجل ذلك – إفصاح. واللسان العربي لذلك لا يحتمل الغموض.

وفي العرب شموخ وبصيرة يمنعان إلقاء الزمام بالاستسلام للبدوات. ويحضان على الاحتياط في التسبار، والاختبار قبل الاختيار، مع الاستعانة بالفطرة والفعل بالاستنباط المجهول عن طريق المعلوم الذي يلمس بالحواس الخمس.. يستوقفه ويكون فكره لأمر الظاهر له. الصافي صفاء السماء فوق إقليمه؛ ولهذا أول المستعربون ولم يتأول العرب.

من هذه الواقعية في العروبة كانت الموضوعية في الفكر والتزام الصدق، ومن واقعية العربي وصدقه واحتياطه لمأتى كل التزام العلم الإسلامي من عهد السلف الصالح لكل خير

إسنادًا، في حين تخيل الآخرون وتصوروا أو تعالموا دون تأكيد، فلم تثبت أخبارهم ولا علومهم، وتكاثرت فيها الأساطير فارسية وإغريقية.

وخاطب الله البشر باللسان العربي ورسوله العربي، واختص البلدة المباركة ببيته العتيق، ليهب للعربية والعروبة جزيرة العرب صدارة. يقول الشافعي في الرسالة: (وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسان النبي ولا يجوز – والله أ'لم – أن يكون أهل لسانه أتباعًا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد، بل كل لسان يتبع لسانه. وكل أهل دين قبله فعليهم إتباع دينه. وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه قال: (وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين).

وقال... وعرفنا بما خصنا به من مكانة فقال: (لقد جاءكم رسول الله من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وكان مما عرف الله نبيه من إنعامه أن قال: (وإنه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه في كتابه قال: (ولتنذر أم القرى ومن حولها). وأم القرى مكة وهي بلدة وبلد قومه. فجعلهم في كتابه خاصة وأنذرهم مع المنذرين عامة) وقال: (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده).

والعرب مادة الإسلام كما يقول عمر.

أو كما قال قتادة بن دعامة السدوسي (١١٧): (إن المسلمين ملا قالوا لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم وضاق بهم إبليس وجنوده فأبى الله إلا أن يمضيها ويظهرها ويفلحها وينصرها على من ناوأها. ومن قائل بها نصر. إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التي قطعها الراكب في ليالٍ قلائل ويسيرٍ من الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها).

ولا عجب أن تنزل الديانات في العرب وأن يقل من يتنصرون منهم أو يتهودون. فالعربي دينه التوحيد لا يسيغ التشبيه أن التجسيد، ولا يعبد المال، ولا يخضع لسيطرة.

وليس عجبًا أن يعيش المسلمون بعد الأجيال الثلاثة الأولى في مستوى أدنى من الإسلام ذاته، إذ ضعف العرب وتقهقرت العروبة وتكاثر الشعوبيون.

وفي حين لم يدخل العرب بلدًا إلا جنودًا لله لا يغزون أو يستعمرون. وكثيرًا ما ينسحبون تاركين أهل البلاد المفتوحة بعد إذ يسلمون، جاء الفرس والترك والتتار إلى بلاد العرب غُزًّى جبارين.

فلا تسأل: لماذا أنزلت الديانات في أرض العرب ولا كيف كان التوحيد سليقة تسبق دعوة ابن عبد الوهاب وجيوش ابن سعود إلى أرجاء جزيرة العرب. فإنما عملت في خدمة الدعوة الفطرة العربية واللسان العربي والاتجاه إلى البيت العتيق صباح مساء.

* * *

وبعد: فما الذي يدلي به الشيخ في مجالسه أو في كتبه؟ إن رسالات للعلماء أو مؤلفاتٍ تعد بالعشرات، وهو قد جلس للتدريس ستين عامًا أو تزيد وأوفد الوفود، وأوصى الكتائب في الزحوف، وعلم الأمراء والجمهور والمتفقهة؟ إن الجواب يمكن تحصيله في كليات هي:

١- الدعوة للتوحيد وتحرير الذات الإنسانية من الاستعباد للبشر فلا إله إلا الله وحده.

٢- تحرير الفكر الإنساني من مذلة التقليد وإتباع السابقين إلا أن يكون عملاً نتبعه ونحن نفهمه عمله الرسول وصحبه فذلك إتباع لا تقليد.

٣- تحرير الفكر الإسلامي مما يدخله عليه المؤولون من آراء رأوها أو أوهام توهموها أو أكاذيب روج لها أعداء الدين.

٤- الدعوة الصادقة للإسلام بالجهاد في سبيل الله أمرًا بالمعروف أو ائتمارًا به ونهيًا عن المنكر أو انتهاء عنه.

والشيخ في تطبيق هذه المبادئ الأربعة وتعليمها ينهج نهج الرسول عليه الصلاة والسلام وهو التعليم، وتلقيح ألباب الرجال وتثقيفهم وتطهير أنفسهم، ثم الجهاد للدفاع عن جوهر ما تعلموه.

والشيخ يحيى سنة درست، ويصوب علماء تواتروا على القعود في صحون المساجد دون عمل، أو في قاعات التدريس قانعين بالشروح والتعليقات ومقلدين للسابقين.

ولئن كان من العلماء من رابط مع أصحاب الرباط أو كان في حاشية الملوك في الحروب، إن الشيخ صنع ما لم يصنعه هؤلاء وما لم يصنعه شيخه ابن تيمية ذاته، إذ تعاهد على الحرب مع الأمير، وخاض معاركها، ونصر الله المسلمين فيها به. وبدأت به مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام.

وبهذه الخصيصة، وما أثرت في تاريخ الإسلام، وضع ابن عبد الوهاب اسمه في جوار هذا الثبت الحافل بأسماء أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وابن تيمية.

المدخل إلى التوحيد

أدرك الشيخ ضرورة أن يعاد بنيان المجتمع على أساس الشريعة، لأن التوحيد لن يبلغ مبلغه إلا أن يحصن إيمان الأفراد. ويهيئ أنفسهم بأوليات العقيدة ليعملوا بها، فأتبع كتابه (الوتوحيد الذي هو حق المولى على العبيد) كتبًا شتى في أبوابها مجتمعة في غرضها، وهو إعداد الناس ليدركوا معاني الكتاب الأول ويلتزموها.

وهذا ظاهر من استعراض بعض الكتب مثل:

مسائل الجاهلية وشرح سورة الفاتحة وتفسيراته للآيات المتفرقة والسور القصار وكتاب الكبائر ونصيحة المسلمين بأحاديث سيد المرسلين والأصول الثلاثة وأدلتها وأصول الإيمان والكلمات النافعة والمسائل المائة وفضل الإسلام ومجموعة الرسائل... إلخ... إلخ..

ولم يكن الشيخ ليوفي على الغاية إلا بما بلغه من شمول فكر يتجلى في أمرين:

١- الاقتدار في فقه العبادات والمعاملات؛ فالفقه أشرف العلوم الإسلامية؛ لأنه أداة العدل، وضابط العمل في الصحة والفساد.

ومن شرف الفقه يشرف الفقهاء والعاملون به، ويخزى العلماء الذين لا يعملون.

٢- الإحاطة الدقيقة بسيرة صاحب الرسالة وما لقيه في الدعوة إن سلمًا وإن حربًا. والسيرة صميم المنهج السلفي؛ لأنها تطبيق على يد صاحب الشريعة وصحبه. وتطبيق السلف حجة

وعلى ذلك كان من أهم ما كتبه الشيخ وعلمه بعد كتاب التوحيد مختصران في الفقه والسيرة: الأول منهما يكفي لوضع الشيخ في موضعه بين عظماء الفقهاء إذ هو مختصر كبير لكتابين كبيرين في المذهب.

والآخر يكفي كل مسلم ليدرك صميم الرسالة وجوهرها ويطابق القول والعمل وجلال الأسوة من عمل النبي وصحبه. والسيرة مصدر للفقه.

وفي الاختصار مشقة ودقة. وبخاصة في كتب الفقه لما يجب لها من جمع الفكر العظيم في حيز ضئيل، ثم بسطه للقراء، مع إسقاط التفاصيل وإضفاء الفهم الذاتي لمن يضع ذلك، ومن ذلك يعتبر المزني بمختصره أفقه أصحاب الشافعي.

وليست سيرة النبي سيرة واحد من العظماء، وإنما هي التطبيق الحي للرسالة كما أنزلها الله وأراد تطبيقها، فالاختصار فيها درجة اقتدار وإحاطة تضؤل دونها شروح المحشين والمعلقين.

* * *

في هذه الكتب جميعًا يقدم الشيخ الدليل القرآني والحديث النبوي وعمل الصحابة والتابعين وإليك أمثالاً:

في كتاب الكبائر اهتمام ملحوظ بنزاهة الراعي وطاعة الرعية – أي بنظام الدولة – وفي ذلك يحدث حديث ابن عمر: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) وحديث ابن عباس: (من كره من أميره شيئًا فليصبر؛ فإن من خرج من السلطان قيد شبر مات ميتة جاهلية) وحديث عرفجة: (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه).

وحديث حذيفة: (ستكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديى، ولا يستنون بسنني، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس! قلت يا رسول الله: كيف أصنع إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك أو أخذ مالك).

وحديث أبي هريرة (سأل أعرابي النبي ﷺ متى الساعة؟ قال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة؛ قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة).

وحديث أبي نصير: (لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت خيرًا فيها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك).

وفي هذا الباب الأساسي لصلاح الدولة والأمة: ينص الشيخ أسانيد الرحمة فيروي دعاء الرسول: (اللهم من شق على امتي شيئًا فشق عليهم وأشقق عليه. ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق عليه) وحديث أبي مريم الأزدي قال معاوية: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من ولاه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وفقرهم، احتجب الله من حاجته وخلته وفقره يوم القيامة).

والشيخ إمام يعطي كل ذي حق حقه، وحق الأمير الطاعة، وحق الأمة العمل في خدمتها فهي تطيعه ما أطاع فيها الله.

obeikandi.com

– وفي كتاب فصل الإسلام يتصدى لحاجات الجماعة فيبين خطر البدع على الفرد والجماعة؛ ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال في الخوارج (متى لقيتموهم فاقتلوهم).

ويذكر الشيخ حجة قاطعة (ذكر للنبي: أن بعض الصحابة قال: أما أنا فلا آكل اللحم، وقال ثان: فأما أنا فأقوم ولا أنام. وقال ثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء، قال رابع: أما أنا فأصوم ولا أفطر، فقال: لكنني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني). ويضيف الشيخ "فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل في العبادة وقيل فيه هذا الكلام الغيظ وسمى فعله رغوبًا عن السنة فكيف بغير هذا من البدع؟ وما ظنك بغير الصحابة؟

ثم ينتقل الشيخ من الاستشهاد بالتبتل ليتكلم عن التبدل لتتجلى الحجة في الشيء وفي نقيضه.

فيروي عن سعيد أخي الحسين أنه قال: (إنكم اليوم على بينه من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في سبيل الله ولم يظهر فيكم السكران سكر الجهل وسكر حب العيش. وستحولون عن ذلك، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين) ذلك معنى قوله ﷺ: (طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يُترك، ويعملون بالسنة حين تُطفأ). وفيه قوله ﷺ (... إنه من يعش منكم فيسري اختلافًا كثيرًا فعلكم بسنتي وسنة خلفائي الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة).

والشيخ يعرف البدعة تعريفًا نبويًا لا يرقى إليه اشتباه فيروي حديث حذيفة: (كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبَّدوها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من قبلكم).

– وفي كتاب أصول الإيمان يروي عن ابن عمر قول النبي ﷺ: (كل شيء بقدر حتى العجز والكيس).

وعن ابن القيم قوله: فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد الاجتهاد. ولذلك لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن، وقال أبو عثمان النهدي لسلمان: لأنا بأول الأمر أشد فرحًا مني بآخره.

ويروي عن أبي الدرداء: (ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته؛ فإن الله لم يكن لينسى شيئًا. "وما كان ربك نسيًا").

وعن علي: (الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره. إنه لا خير في عبادة لا علم فيها. ولا علم لا فهم فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها).

وعن الحسن إذ سمع قومًا يتجادلون: (هؤلاء قومًا ملّوا العبادة وخف عليهم القول، وقل ورعهم، فتكلموا).

* * *

وفي الأصول الثلاثة وأدلتها يقول بين تفصيل طويل: إن على كل مسلم أن يتعلم أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً وأن الله لا يرضى أن يَشْرَكَ معه في عبادته أحد. وأن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب.

ويوالي الشيخ شرح القيم التي لا معدى عنها لقيام مجتمع سليم فينبه على تضامن الجماعة والبر بذوي القربى، وعلى أن إحسان العمل بحاجة إلى توفيق الله ورضاه وإن أحسن الإنسان كل الإحسان.

يروى عن عمر وكأنه يرى مصير قاضيه في تحكيم علي ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين: (عن أبي بردة بن أبي موسى قال: قال لي عبد الله بن عمر: هل تدري ما قال أبي لأبيك؟ قال لا؛ قال: فإن أبي قال لأبيك: يا أبا موسى، هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه وجهادنا معه يرد لنا، وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافًا رأسًا برأس؟ فقال أبوك لأبي: لا، والله، فقد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيرًا كثيرًا وأسلم على أيدينا بشر كثير وإنا لنرجو ذلك، ولكني أنا، والذي نفس محمد بيده، لوددت أن يرد ذلك لنا. وأن كل عمل عملناه، بعده نجونا منه كفافًا رأسًا برأس. فقلت: إن أباك والله كان خيرًا من أبي).

ويروي قول ثوبان عن النبي عليه الصلاة والسلام كأنما يقصد بها عصرنا الحالي: "توشك الأمم أن تداعى إليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها". فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغاء السيل. ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن" قال قائل: يا رسول الله ما الوهن؟ قال: "حب الدنيا وكراهة الموت".

– ويجتمع في **(المسائل المائة)** رؤوس مسائل لم يعد للإسهاب فيها فيما بعد. وكلها تدور حول الأمور التي أصلح الله بها بال المسلمين، ومدارها التوحيد والحرية وطهارة النفس واعتبار الحق هو القيمة الحقيقية.

ويظهر فحوى هذا الكتاب من فاتحته. فالمسألة الأولى من المسائل المائة هي أنهم كانوا في الجاهلية (يعيدون بإشراك الصالحين في دعاء الله تعالى وعبادته، ويرون ذلك من تعظيم الصالحين الذي يحبه الله. ويريدون بذلك شفاعتهم عند الله لظنهم أنهم يحبون ذلك كما قال تعالى في سورة الزمر ٢ – ٣: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصًا له الدين. ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون) قال تعالى في سورة يونس/ ١٨: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ** ﴾ وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله فأتى بالإخلاص... وهذه المسألة هي الدين كله. ولأجلها يفرق الناس بين مسلم وكافر. وعندها وقعت العداوة، ولأجلها شرع الجهاد، وكما قال تعالى في سورة البقرة/ ١٩٣: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾.

obeikandi.com

التوحيد

ألف الشيخ كتاب (التوحيد الذي هو حق المولى على العبيد) في ثلاثيناته وهو في طليعة مؤلفاته إن لم يكن أسبقها كافة [٦٣].

ولئن ساغ تقديم فحوى الكتاب في كلمات – فهي أن الشيخ يرى أن التوحيد ليس مجرد توحيد الربوبية: إن الله وحده خلق العالم، بل الإقرار بأن الله هو المستحق وحده للعبادة مع الالتزام بتنفيذ هذا الإقرار... وذلك أن المشركين العرب كانوا يقرون بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين بقوله تعالى في سورة يوسف/ ١٠٦: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾ ويقول في سورة البقرة/ ١٦٥: ﴿ **وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾.

فكلمة لا إله إلا الله لا تنفع قائلاً إلا أن يعرف مدلولها نفيًا وإثباتًا. ومن قالها على غير علم واعتقاد وعمى فهو جاهل، ومن أشرك بالله عن جهل وجب تعليمه. فإن أصر لزم حربه.

ويبين الشيخ حقيقة التوحيد كما فهمها المسلمون من السلف الصالح وضروب الشرك التي سقط فيها بعض المسلمين عندما تدهوروا في القرون اللاحقة، واعتقدوا اعتقادات فاسدة، وأقفلوا باب الاجتهاد، وقعدوا عن الجهاد.

والمعتقدات الفاسدة هي التي أمكنت أعداء المسلمين من المسلمين بجهلهم خصائص الدين، وإطفائهم شعلة العقل وتقليد قليل من الرجال أزمة تفكيرهم، والرضا بمجرد الحياة على وجه الأرض، لا بالحياة التي ترفع المسلم درجات.

---

(٦٣) عنى المؤلفون في سيرة ابن عبد الوهاب ودعوته بهذا الكتاب ومن أوائلهم آل الشيخ أنفسهم، ولهم فيه أكثر من شرح ولعل أكثرها تداولاً كتاب فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد، ألفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ (١٢٥٦) مضيفًا فيه إلى تأليف سابق قام به حفيد آخر للشيخ هو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب سماه (تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد)، ثم اختصره في كتاب آخر (قرة عيون الموحدين).

ونفى عبد الرحمن إلى مصر حيث درس بالأزهر، ثم عاد إلى نجد سنة ١٢٤١. يقول عنه ابن بشر في كتاب (عنوان المجد). إذ يروي حوادث تلك السنة: (وفيها أقبل من مصر العالم النحرير والبحر الزاخر الغزير مفيد الطالبين المخصوص بعناية رب العالمين جامع أنواع العلوم الشرعية).

يستفتح الشيخ بالآي من الكتاب الكريم مثل قوله تعالى في سورة الذاريات/ ٥٦: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ وقوله في سورة الإسراء/ ٢٣: ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** ﴾ وقوله في سورة النساء/ ٣٦: ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً** ﴾ وقوله في سورة الأنعام/ ١٥١: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً** ﴾: أي يبدأ بتخصيص الخلق بعبادة الله وباجتناب عبادة الشيطان وعدم إشراك أحد مع الله.

ثم يورد قول ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمة فليقرأ قوله تعالى: ﴿ **أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ – إلى قوله وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً** ﴾. وحديث معاذ بن جبل: (كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ فقلت: الله ورسوله أعلم قال: حق الله على العباد أن يعبدون ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا، قلت: يا رسول الله، ألا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا).

وإيراد الحديثين بعد الآيات شرح للكتاب بالسنة وهو منهج الإمام أحمد تبعه فيه ابن تيمية فابن عبد الوهاب ومن أخذ أخذهم.

وعبادة الخالق لا تقبل عبادة المخلوقات، وتستلزم الإذعان التام بإسلام الوجه لله تعالى بإخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق. ولا يصدق ذلك ممن خالف قلبه لسانه فهو عاص منافق، وإنما الصادق هو المحب في الله والمبغض في الله، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر. قال تعالى في سورة التوبة/ ٧١: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ** ﴾

والرسول يقول: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني).

وتحقيق التوحيد تصفيته من شوائب الشرك في العبادة بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات أو الغائبين أو الطواغيث أو الجن أو طلب الخير من غير الله، فمن دعا غائبًا واقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة إليه أو رهبة منه سواء سأله أو لم يسأله – فهذا هو الشرك؛ ولهذا حرم الله اتخاذ الشفعاء. فمن اتجه إلى الشفيع فقد أعرض عن الله. والله تعالى يقول في سورة البقرة/ ١٦٥: ﴿ **وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ فمن يتخذ ندًا تساوى محبته الله فهو مشرك؛ وليس شرك المشركين بعبادة الأصنام وحدها، وإنما بدعاء الغائبين والموتى لجلب تقع أو دفع ضرر، فهذا من الشرك الأكبر.

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) الأعراف/ ١٨٠ فالتوسل إلى الله يكون بأسمائه وصفاته كقوله (اللهم إني أسألك أنت الله لا إله إلا أنت....).

والذين يتخذون الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله يتبعونهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام ويحبونهم كأنهم أنداد الله – يشركون.

والذين يغلون في قبور الصالحين ويبنون عليها المساجد والمشاهد يشركون.

ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحو ذلك لرفع البلاء أو دفعه، فالله يقول في سورة الزمر/ ٣٨: ﴿ **قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ** ﴾؟

والرسول يقول: (من تعلق تميمة فلا أتم له الله ومن تعلق ودعة فلا ودع له الله) ويروي ابن مسعود عن الرسول: (إن الرقي والتمائم شرك) (٦٤) وإبراهيم النخعي يقول: إنهم يكرهون

---

(٦٤) إذا كان في الرقية ذكر الله تعالى فإنه يستحب والرقية حينئذ دعاء ورجاء لله تعالى. وقد كانت رقى أهل الجاهلية ممزوجة بالسحر.

ويقول النبي ﷺ: (ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية).

أما الحزن من غير جزع والبكاء بغير عويل ففيه قول عمر إذ سمع النسوة يبكين خالد بن الوليد وأراد بعض منعهن فقال: (دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نفع ولقلقة). والنفع التراب على الرأس واللقلقة الصوت.

ويقول تعالى في سورة الإسراء ٥٧: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً** ﴾ فالله تعالى ينكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم لأن دعاء الغائبين والموتى لجلب منفعة أو نفع مضرة شرك أكبر لا يغفره الله.

ومن الشرك ما يعطل العقل ويدفع إلى التقليد ويمنع الاجتهاد: قال تعالى في سورة التوبة ٣١: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله**﴾.

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي فقال عدي: (يا رسول الله لسنا نعبدهم قال: أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال بلى: قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم).

والرسول يقول: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك..).

ويقول: (إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. وإن رزق الله لا يجره حرص ولا يرده كراهية كاره).

وأما كونهم يعتقدون التأثير منهم في قضاء جاجاتهم كما كانت تفعله جاهلية العرب ويفعله الصوفية الجهال وينادونهم ويستنجدونهم... فهذا من المنكرات. وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات فحاشى الله أن يكون أولياء الله بهذه المثابة. فهذا ظن أهل الأوثان!

ولقد كان علي وعمر من أصحاب الكرامة، وكلاهما عاقب على الشرك أشد العقاب: الأول خد الأخاديد لمن غلوا فيه والآخر – وهو المحدث – لم يدع لنفسه كرامة، بل كان من أكثر المسلمين عملاً وتواضعًا لله.

وأما ما قاله المتصوفة من أن منهم أبدالاً ونقباء وأوتادًا ونجباء وسبعين وسبعة واربعين وأربعة والقطب هو الغوث للناس – فهذا من موضوعات إفكهم، كما ذكره القاضي المحدث في سراج المريدين وابن الجوزي وابن تيمية. والله يقول في سورة الأعراف ١٨٨: ﴿ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ والرسولي حين أزل عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) يقول: (يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية (عمة رسول الله ﷺ) لا أغنى عنك من الله شيئًا؛ ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا!).

ويقول ابن القيم: (ومن أنواع الشرك طلب الحاجات من الموتى والاستعانة بهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا).

والله يقول: (فصل لربك وانحر): أي لله وحده.

قال رسول الله ﷺ: (لعن الله من ذبح لغير الله).

فهذه النذور من عباد القبور تقربًا إلى أصحابها ليقضوا الحاجات كلها شرك لا ريب فيه: يقول الله تعالى: الأنعام/ ١٣٦ ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾. ويقول ابن تيمية: كالنذر للأصنام والشمس والقبور. والنذور لزيارة القبور معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به والنذر لسندة القبور والمجاورة للقبور معصية لا شك فيها. وإن قصد الناذر تعظيم القبة أو المشهد أو الزاوية أو من دفن فيها فالنذر باطل لا ينعقد بالإجماع.

ومن الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

يقول ابن تيمية: فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام لأسباب منها: الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب. في الغلو في المسيح: فكل من غلا في نبي أو

obeikandi.com

التمائم كلها من القرآن وغير القرآن. وعلى ذلك كان كل تلاميذ عبد الله بن مسعود، وعن عتبة بن عامر أنه جاء في ركب عشرة إلى رسول الله ﷺ، فبايع تسعة، وأمسك عن رجل منهم، فقالوا: ما شأنه؟ قال: إن في عضده تميمة فقطع الرجل التميمة فبايعه رسول الله ثم قال: (من علق تميمة فقد أشرك).

وعن ابن مسعود أنه دخل على امرأته وفي عنقها شيء معقود، فجذبه فقطعه ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الرقى والتمائم والتولة شرك" قالوا يا أبا عبد الرحمن: هذه الرقى والتمائم قد عرفناها فما التولة؟ قال شيء تصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن.

وقد تعلم المسلمون من كتابهم وسنة رسولهم أن يطلبوا المسببات من أسبابها ويعرضوا عما يقوله بعض من أسباب خفية يزعمونها ويروجها سدنة المعابد والمتاجرون بالأوهام والله يقول. ﴿ **قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ النمل ٦٥. ويقول ﴿ **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ الأعراف ١٨٨. ويقول: ﴿ **أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ سبأ – ١٤، والرسول يقول: (من أتى كاهنًا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ).

والرسول يقول في السحر والطيرة: (ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له).

وفي النفث في العقد يقول: (من نفث في عقدة فقد سحر ومن سحر فقد أشكر).

وسئل عليه السلام عن النشرة – حل السحر عن المسحور – فقال: (هي من عمل الشيطان)

رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي "فلان" انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أنا في حسبك ونحو هذه الأقوال – فكل هذا شرك وضلال.

ويقول: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعًا.

وهذا الذي يقوله الإمام الحنبلي بقوله الأحناف: في الفتاوي اليزارية: من قال أرواح المشايخ حاضرة فقد كفر. وقال الشيخ صنع الله الحنفي: أما قولهم للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد ا لممات فيرده قوله تعالى في سورة النمل/ ٦١ – ٦٤ (إله مع الله؟). وسورة الأعراف/ ٥٤ (ألا له الخلق والأمر)... إلخ... إلخ.

والسحر واحد من الموبقات وحد الساحر ضربه بالسيف، فالسحر شرك، ومن أتى عرافًا فصدقه فقد أتى عملاً من أعمال الشرك.

والنشرة مثل السحر فإن كانت بسحر فهي مثله. وإن كانت بدعاء أو بدواء ونحو ذلك فهي حلال. ولما ذكرت الطيرة – وهي التشاؤم أو المسموع – عند رسول الله قال: أحسنها الفأل ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك).

ولأحمد من حديث ابن عمرو: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن يقول (اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك).

والنائحة ترتكب إحدى الكبائر. وفي الحديث شدة الوعيد عليها قال عليه السلام: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب).

ومن الشرك التبرك بشجرة أو نحوها! قال أبو واقد الليثي: خرجنا مع رسول الله إلى حنين، ونحن جدثاء، وللمشرين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا، يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال: (الله أكبر؛ إنها السنن. قلتم، والذي نفسي بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ **اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾، لتركبن سنن من كان قبلكم).

ومن الشرك النذر لغير الله. كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور. والعبادة إذا صرفت لغير الله صارت شركًا والرسول يقول: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه).

ومن الشرك الاستعانة بغير الله أو دعاء غير الله. وهو يقول في سورة يونس/ ١٠٦: ﴿ **وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾

روى الطبراني (٣٦٠) أنه كان في زمن رسول الله منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله). وما هذا إلا لحماية التوحيد وسد ذريعة الشرك والتأدب مع الله. والله تعالى يقول لنبيه آل عمران/ ١٢٨ ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾. ولما نزلت على رسول الله (وأنذر عشيرتك الأقربين). فقال قال: (يا معشر قريش أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئًا...).

والشفاعة نوعان:

نوع منفي في القرآن: يقول الله تعالى في سورة يونس/ ١٨: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّـهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّـهِ** ﴾. وهذا شرك بقوله تعالى في سورة يونس/ ١٨: ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾

والنوع الآخر: أثبته القرآن، وقيده الله تعالى بأمرين: ١- إذنه للشافع قال تعالى في سورة البقرة/ ٢٥٥: ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾، ٢- ورضاه عمن أذن للشافع أن يشفع فيه قال تعالى في سورة الأنبياء/ ٢٨: ﴿**ولا يشفعون إلا لمن ارتضى**﴾

obeikandl.com

الغلو في الصالحين

ويستطرد الكتاب. فثمة باب تدور حوله أبواب. هو (ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين). وفي الصحيح عن ابن عباس في قوله تعالى في سورة نوح/ ٢٣: ﴿ **وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً** ﴾. قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموهم بأسماءهم؛ ففعلوا. ولم تعبد. حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم حقيقة أمرهم عبدت. أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل؛ وأما سواع فكانت لهذيل. وأما يغوث فكانت لمراد. ثم لنبي القطيف، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لآل ذي الكلاع (٦٥).

---

(٦٥) ويقول الشيخ في كتاب مختصر السيرة:

(ومن أقدم أصنامهم مناة وكان منصوبًا على ساحل البحر ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة، فبعث رسول الله صلى ديد بين مكة والمدينة، فبعث رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه فهدمها عام الفتح. ثم اتخذوا اللات في الطائف وقيل: إن أصل ذلك رجل يلت السويق للحاج، فمات، فعكفوا على قبره وكانت صخرة مربعة سدتها ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها بيتًا، فكان جميع العرب يعظموها، وكان العرب تسمى "زيد اللات وتيم اللات" وهي في موضع منارة مسجد الطائف. فلما أسلمت ثقيف بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها، وأحرقها بالنار، ثم اتخذوا العزى وهي أحدث من اللات. وكانت بوادي نخلة فوق ذات عرق. وبنوا عليها بيتًا، وكانوا يسمعون منها الصوت، وكانت قريش تعظمها، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فهدمها.

هبل: وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان، وكانوا إذا اختصموا أو أرادوا سفرًا أتوه فاستقسموا بالقدح عنده. وكان لهم أساف ونائلة: أصلهما أن أسافًا رجل من جرهم ونائلة امرأة منهم، فدخلا البيت، ففجرا فيه، فمسخهما الله حجرين، فأخرجوهما، فوضعوهما ليتعظ بهما الناس، فلما طال الأمد وعبدت الأصنام عُبدا. وذو الخلصة وكان لخثعم وبجيله بين مكة والمدينة. فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبد الله الجبلي: (ألا تريحني من ذي الخاصة) فسار إليه فقاتلته همدان فظفر بهم وهدمه. وكان لأ÷هل كل واد بمكة صنم إذا أراد أحدهم سفرًا كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به. وصنم عم أنس. وكان لحولان وكان العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيث وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلثمائة وستين صنمًا فجعل يطعن في وجوهها وعيونها ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) الإسراء ٨١. وهي تتساقط على رؤوسها ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وأحرقت.

وينتقل من عبادة الأصنام إلى عبادة القبور والنبي ﷺ يحذر منها بقوله: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). ويقول: (ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك).

وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا.

ومالك يروي في الموطأ عن الرسول: (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، وعن ابن عباس قال: (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج). وعن علي زين العابدين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي فيدخلها فيدعو فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا وصلوا عليّ وإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) [٦٦].

وهذا يدل على أن قصد القبر للسلام ممن يدخل ليصلي منهي عنه. وأن قصده للدعاء منهي عنه.

وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك [٦٧]. وكان الصحابة – والتابعون يأتون مسجد النبي فيصلون فإذا قضوا

---

(٦٦) العيد يجمع معاني: منها الاجتماع المعتاد، واليوم العائد كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها الأعمال التي تتبع فيه (الاحتفالات والموالد).

(٦٧) يقول مالك: (لا أرى لمن يدخل مسجد الرسول أن يقف عند قبر الرسول ﷺ ولكن يسلم ويمضي).

ويقول القرطبي: ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي، فأعلوا حيطان تربته. وسدوا المداخل إليها. وجعلوها محدقة بقبره، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره.

ونص أحمد أن يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستديره. ويقول الشافعي: أكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدًا مخافة الفتنة على من بعده من الناس.

وذكر الزيلعي أنه يكره أن يبنى على القبر. وذكر قاض خان وهو حنفي) أنه لا يبنى على القبور ولا يخصص كراهة تحريم. وابن حجر يذكر أن بناء القباب على القبور من الكبائر.

ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر. وأوصى الأسود بن يزيد: (لا تجعلوا على قبري آجرًا)، وأوصى أبو هريرة عند موته لا يضربوا على قبره فسطاطًا، وكره الإمام أحمد أن يُضرب على القبر فسطاط. وبعد أن منع الرسول زيارة القبور أباحها للاعتبار.

الصلاة قعدوا أو خرجوا. ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد هي السنة. وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم عنه في قوله) لا تتخذوا قبري عيدًا وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني).

والحسن بن زين العابدين يقول لسهيل بن أبي سهيل: ماذا رأيت عند القبر؟ فيجيبه: سلمت على النبي ﷺ. فيقول له: إذا دخلت المسجد فسلم. إن رسول الله ﷺ قال: لا تتخذوا قبري عيدًا ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم. لُعن اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

* * *

وفي كتاب كشف الشبهات يواصل الشيخ شرحه الآي واحدة بعد أخرى. يقول: (اقرأ قوله تعالى في سورة يونس/ ٣١: ﴿ **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** ﴾ وبقوله تعالى في سورة المؤمنون/ ٨٤-٨٩: ﴿ **قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ** ﴾. وغير ذلك من الآيات فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا لهم أو يدعو رجلاً صالحًا مثل اللات أو نبيًا مثل عيسى، وعرفت أن رسول الله قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى في الجن/ ١٨: ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً** ﴾ وكما قال تعالى في الرعد/ ١٤: ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ** ﴾.... وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام - عرفت حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون.

وهذا التوحيد هو معنى قولك لا إله إلا الله، فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكًا أو نبيًا أو وليًا أو شجرةً أو قبرًا أو جنيًا، وإنما يعنون بالإله ما يعني

المشركون في زماننا من كلمة السيد [٦٨] فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد... معناها لا مجرد لفظها).

الفتاوي:

في فتاوي الشيخ ورسائله توضيح لفكره، وكذلك فتاوي أبنائه بعده وكانوا حقًا علماء، وإليك أمثالاً:

١- رسالة جوابية من محمد بن عبد الوهاب.

يقول في الشرك: (..... قيل: إن أول آية نزلت قوله سبحانه وتعالى بعد اقرأ - ﴿**يأيها المدثَّر قم فأنذر**﴾ قف عندها ثم قف ثم قف تر العجب العجيب. وتتبين لك ما أضاع الناس من الأصول. وكذلك قوله تعالى في النحل/ ٣٦: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا**﴾ الآية وكذلك قوله تعالى في الجاثية/ ٢٣: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾.... ولكن أظنك وكثيرًا من أهل هذا الزمان ما تعرف من الآلهة المعبودة إلا هبل ويغوث ويعوق ونسرًا واللات والعزى ومناة. فمن جاد فهمه عرف أن المقامات المعبودة اليوم من البشر والشجر والحجر ونحوها مثل شمسان وإدريس وأبو حديدة ونحوهم، منها. هذا ما أثمر به الجهل والغفلة).

ويقول في الاجتهاد: (.... وهذه المسائل وأشباهها ما يقع الخلاف فيه بين السلف والخلف من غير نكير من بعضهم على بعض، فإذا رأيتم من يعمل ببعض هذه الأقوال المذكورة بالمنع من كونه قد اتقى الله ما استطاع لم يحل لأحد الإنكار عليه اللهم إلا أن يتبين الحق فلا يحل لأحد أن يتركه لقول أحد من الناس. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يختلفون في بعض المسائل من غير تكبر ما لم يتبين النص، فيجب على المؤمن أن يحترم أهل العلم ويوقرهم ولو أخطئوا، لكن لا يتخذهم أربابًا من دون الله....).

وفي الصفات يقول ابنه عبد الله:

(الجواب وبالله التوفيق عن آيات الصفات وأحاديثها التي اختلف فيها علماء الإسلام فنقول: الذي نعتقد وندين لله به هو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم

---

(٦٨) قول أهل زماننا: (سيدي فلان).

بإحسان من الأئمة الأربعة وأصحابهم رضي الله عنهم أجمعين. وهو الإيمان بذلك والإقرار به وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل...).

وفي جواب من يسأل عمن كان يستغيث بالمخلوق عند الشدائد بالنداء والدعاء، ويستغيث ويتوسل ويتوجه بنبيه أو بالصالحين.

(والجواب: أما سؤال الميت والغائب نبيًا كان أو غيره تفريج الكربات وإغاثة اللهفات والاستغاثة به في الأمور المهمات فهو من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين... ولا أ؛د من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ولا كانوا يقصدون قبورهم للدعاء والصلاة عندها، ولهذا ثبت في الصحيح أن الناس لما قحطوا في زمان عمر رضي الله عنه استسقى بالعباس وتوسل بدعائه وقال: اللهم، إنا كنا نتوسل إليك إذا أجدبنا بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون. وكذلك معاوية رضي الله عنه لما استقى لأهل الشام توسل بيزيد بن الأسود الجرشي، فهذا الذي ذكره عمر رضي الله عنه توسل منهم بدعاء النبي وشفاعته في حياته؛ ولهذا توسل بعده بدعاء العباس وتوسل معاوية بدعاء يزيد بن الأسود...) (٦٩)

---

(٦٩) وتستمر الفتوى

– وهذه الأمور المبدعة عند القبور أنواع: أبعدها عن الشرع من يسأل الميت كما يفعله كثير من الناس. وهؤلاء من جنس عباد الأصنام فكل من دعا نبيًا أو وليًا وجعل فيه نوعًا من الإلهية فقد تناولته هذه الآية. فإنها عامة في كل من دعا من دون الله مدعوًا... سواء كان بلفظ أو غيرها فقد فعل الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه... وقد نص الأئمة أنه لا يجوز الاستعانة بمخلوق... والغلو في الصالحين هو من فعل المشركين كما حكاه الله تعالى عن قوم نوح...

فكل من غلا نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من العبادة مثل أن يقول: يا سيدي فلان أنصرني أو اغثني أو ارزقني أو آجرني أنا في حسبك أو نحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه..

النوع الثاني من الأمور المبدعة عند القبور أن يسأل الله تعالى به، وهذا يفعله كثير من المتأخرين، وهو من البدع المحدثة في الإسلام، ولكن بعض العلماء يرخص فيه، وبعضهم ينهي عنه ويكرهه. وليس هذا من النوع الذي قبله، فإنه لا يصل إلى الشرك الأكبر عند من كرهه ولا يسمى هذا استغاثة بالرسول، وإنما هو سؤال به. والفرق بينه وبين الذي قبله فرق عظيم؛ فإن المستغيث بالشيء طالب منه سائل له والمتوسل به لا يدعو ولا يطلب منه ولا يسأل. وإنما يطلب به. والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ لا نعلم أحدًا من السلف فعله: قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف قال: قال أبو حنيفة: (لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن

ويفتي أبناء الشيخ حسين وإبراهيم وعبد الله وعلي فرادى أو مجتمعين.. من ذلك: قول حسين وعبد الله جوابًا على استفتاء: (ن عقيدة الشيخ رحمه الله... عي عقيدة سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان... وإذا تفقه الرجل في مذهب من المذاهب الأربعة ثم رأى حديثًا يخالف مذهبه فاتبع الدليل وترك مذهبه – كان هذا مستحبًا بل واجبًا عليه إذا تبين له الدليل. ولا يكون مخالفًا لإمامة الذي اتبعه. فإن الأئمة كلهم متفقون على هذا الأصل..

وأما إذا لم يكن عند الرجل دليل في المسألة يخالف القول الذي نص عليه العلماء أصحاب المذاهب فنرجو أنه يجوز له العمل به لأن رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا وإنما أخذوا الأدلة من أقوال الصحابة فمن بعدهم. ولكن لا ينبغي الجزم بأن هذا شرع الله وشرع رسوله. حتى يتبين الدليل الذي لا معارض له في المسألة. وهذا عمل سلف الأمة وأئمتها قديمًا وحديثًا والذي ننكره هو التعصب للمذاهب وترك أتباع الدليل[٧٠].

يقول: (بمقعد العز من عرشك أو بحق خلقك) وهو قول أبي يوسف. قال أبو يوسف: بمقعد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا. وأكره بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت والمشعر الحرام.

النوع الثالث من الأنواع المبدعة عند القبور: أن يظن ان الدعاء عندها مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد، فيقصد القبر لذلك، فإن هذا من المنكرات إجماعًا.....).

(..... من مات على التوحيد وإقامة قواعد الإسلام الخمس وأصول الإيمان الستة ولكن كان يدعو وينادي ويتوسل في الدعاء إذا دعا ربه ويتوجه بنبيه في دعائه معتمدًا على الحديثين اللذين ذكرناهما أو جهلاً منه وغباؤه – كيف حكمهم؟

فالجواب أن يقال: .... في أزمنة الفترات وغلبة الجهل لا يكفر الشخص المعين بذلك حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ويبين له ويعرف أن هذا هو الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله. فإذا بلغته الحجة تليت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ثم أصر على شركه – فهو كافر؛ بخلاف من فعل ذلك جهالة منه ولم ينبه على ذلك. والجاهل فعله كفر. ولكن لا يحكم بكفره إلا بعد بلوغ الحجة إليه. وأما من مات وهو يفعل الشرك جهلاً لا عادًا فهذا نكل أمره إلى الله تعالى....).

(٧٠) وتستمر الفتوى.

لا يجوز تقبيل أيدي العلماء والسادة الأغنياء في التحية، ويتخذ ذلك عادة وسنة، بل ذلك من البدع المحدثة. فيجب على المسلمين إزالتها والنهي عنها. وأما تقبيل اليد في بعض الأحيان كتقبيل يد العالم لمعلمه، أو من كان من أهل بيت رسول الله ﷺ لشرف نسبه – فلا بأس بذلك إذا لم يجعل عادة مستمرة كما صح في الحديث: أن أبا عبيدة قبل يد عمر. والفرق أن ما يفعل في بعض الأحيان يجوز، وأما ما يجعل عادة وسنة فلا يجوز.